المذهَب الصوفى

أيرلندة وقيام المذهب الصوفى فى مسرحها ● ماهو المذهب الصوفى ؟ ● مسرحية «الرجل المسافر» لليدى جريجورى ● بعض مسرحيات بيتس ـ مسرحية «الساعة الرملية» ● مسرحية «حيث لا شىء» ● مسرحية « كل حى» ، وهى مسرحية أخلاقية

أيرلنده وقيام المذهب الصوفى فى مسرحها:

فى أواخر القرن التاسع عشر ، وفى الثلث الأول من القرن العشرين ، قامت حركة أدبية قوية فى أيرلندة كان أبطالها يهدفون إلى ما تهدف إليه الحركة السياسية الثورية هناك من الانفصال عن إنجلترا ، ومن ثمّ كان لهذه الحركة طابعها الفذ المستقل عن الأدب الإنجليزى بعامة . . شعره ونثره وأغراضه . . وقد تميزت تلك الحركة فى دنيا المسرح بانطباعات عدة أهمها : ما كان يدعو إليه الكاتب المسرحى الكبير ا . ج م . سنج A.J.m. Synje (١٨٧١ ـ ١٩٠٩) وليدى أوجستا جريجورى Lady Aujusta Gre-jory (١٨٥٩ ـ ١٩٣٢) ووليم بتلرييتس W.B.Yeats (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩) من الثورة على المذهب الواقعى وتجريد المسرح والمسرحية للأغراض الأدبية الخالصة البعيدة عن الأفكار والتى لا تنشد إصلاحًا ولا تهتم بنقد المجتمع أو التبشير بفلسفة اجتماعية خاصة ، وكان سنج يتحمس لهذا تحمسًا شديدًا ، ويحتج له بألاّ بدّ للمسرحية أن تكون عملاً فنيًا خالصًا يسمو بالنفس البشرية ويعلو بها فوق أدران هذه الحياة المملة المتعبة المكتظة بالآلام والمواجع . . تمامًا كما تفعل الموسيقى السيمفونية . . من أجل ذلك اتجه هؤلاء الكتّاب نحو الأسطورة والأسطورة الدينية أو المناهضة لرسالات الأديان ، ونحو تصوير الروح الريفى الذى تزيده طبيعة الجزيرة الأيرلندية فتنةً على فتنةٍ وسحرًا فوق سحر .

على أن ليدى جريجورى ووليم ييتس اتجها بالمسرحية اتجاها صوفيّا طريفًا . . أو اتجاهًا روحانيّا أخذ مظهرين متناقضين . . وهو ما يكاد يشبه ما حدث فى عالم التصوف الشرقى تقريبًا ، حينما انقسم المتصوفة عندنا فكان منهم من حافظ على روح الشريعة وإن ساروا بفرائض الدين فى طريق كله تزكية روحية وصفاء نفسانى مستنير وتطهير وجدانى لا غبار عليه ؛ وكان منهم فئة أخرى . . فئة ضالة . . استعلت على العلم والشريعة ، فزعمت أنهما للعامة . . العامة التى لابد أن تؤخذ بالعلوم والفرائض والشرائع والقوانين تضبط حركاتها وتقيد تصرفاتها فى كل شىء . . فى العبادات وفى المعاملات على السواء . . أما الخاصة ، « وهم صفوة المتصوفة » فيما يزعم هؤلاء ، فهم أهل الحقيقة ، وهم لذلك لا يتقيدون بما يدعو إليه الدين من فرائض وما يلزم به العامة من علم ومن شرائع وقوانين . . وكلا الفريقين يدعو إلى التخلص من مادة هذا العالم والاندماج فى الذات الإلهية .

وتكاد ليدى أوجستا جريجورى تمثل الفئة الأولى . . ويكاد وليم بتلر ييتس يمثل الفئة الثانية .

وسنكتفى بتلخيص عددقليل من مسرحيات هذين الكاتبين ، مراعين أن تمثل كل منها اتجاهه الصوفى الذى آثره ، وكتب فيه أكثر ما كتب .

ما هو المذهب الصوفى؟ :

ونلاحظ أن هذا المذهب الصوفى هو خليط من المذاهب الرومنسية والرمزية والسريالية ، كما أن له صلة واضحة ببذرته الأولى ، وهى المسرحية الدينية ولا سيما النوع الأخلاقى منها أو إلى Morality . فهل كان المذهب الصوفى فى المسرح ردة إلى هذا اللون اللطيف من المسرحيات الدينية التى مهدت السبيل للمذهب الرومنسى ، وفتحت الباب على مصراعيه لحصر المآسى والملاهى العظيمة . . أى عصر إليزابث؟ . . . ربما !

* * *

مسرحية الرجل المسافر: (١)

تمثيلية صوفية بقلم ليدى جريججورى .

(١) The Travelling Man .

فى ليلة مظلمة شديدة البرد عاصفة الرياح كانت سيدة تجوب الطرقات المقفرة وقد حملت فى روحها هموم الدنيا ومتاعب الحياة . . وهى لا تدرى أين تمضى ، ولا تعرف أيّان تسير . . ولم يكن الظلام وحده هو الذى يحيط بها فى تلك الليلة المضلة . . بل كانت أحزانها تحيط بها أيضًا . . وكان آلم ما يؤلمها ويجرح نفسها أنها كانت تمضى فى الحياة بلا أمل . . وتضرب فى بيدائها على غير رجاء . .

وكانت هذه السيدة عند ارتفاع الستار ، تقص قصتها على ولدها الصغير الناشى ، وتقول : إنها ظلت تضرب فى ظلام تلك الليلة الحالكة ، وذلك منذ سنوات سبع ، حتى لقيها الرجل المسافر فأنقذ حياتها ، وهداها إلى كوخ لطيف صغير وجدت فيه الكن ، ووجدت فيه المحبة والأمان والسلام .

ويسألها ولدها : «هل كان يلبس تاجًا كتيجان الملوك » ؟

وتجيبه السيدة : « إنه كان يلبس تاجًا . . فقد كان تاجه مصنوعًا من جدائل الشوك الأسود فحسب ، لكنه كان يحمل فى يده غصنًا أخضر ليس مما ينبت فى هذه الدنيا أبدًا . ولقد أخذنى من يدى ثم لم يزل ماضيًا بى فوق حصباء الطريق حتى انتهى بى إلى باب هذا الكوخ ، وأمرنى أن أدخل لأجد كنّا جميلاً آمنًا . وقد ركعت لأشكر له ، لكنه أنهضنى ، ثم قال : « إننى سوف أعود يومًا ما لأراك وأطمئن عليك . . ولكن . . . اسمعى . . أوصيك ألا تغلقى أبواب قلبك دون الأشياء التى أعطيك إياها ، بل هشى وبشى واسعدى أمامى » .

وتمضى الأيام ، وكلما كان ميعاد تلك الليلة التى جاء الرجل المسافر بالسيدة إلى كنها ذاك . . كنها الذى وجدت فيه المحبة والأمان والسلام . . كانت تقف بباب الكوخ منتظرة مترقبة ، لعله يعود لتحظى منه بنظرة ، أو تقدم له تحية شكر أو صلاة عرفان بالجميل . وفى أحد تلك المواعيد . . وبالأحرى ، حين يظلها أحد تلك المواعيد ، تخرج السيدة من الكوخ لتذهب إلى إحدى جاراتها كى تقترض منها شيئًا من الدقيق لتصنع منه كعكة تحية له إذا جاء ، وهدية لطيفة تظهر له بها شكرانها ، وتعبر بها عن عرفانها له بجميله .

وبينما هى خارج الكوخ لهذا الغرض إذا برجل جواب آفاق يصل إلى الكوخ . رجل بدت عليه وعثاء السفر ، ولبس أسمالاً وخرقًا . . ويدخل الرجل بعد أن يستأذن فلا يأذن له أحد . . وبعد أن يستوثق من أنه لا يوجد أحد بالكوخ ! . . . إلا هذا الطفل . . . الطفل الكريم الذى تركته أمه وحده ومن غير أن يكون معه أنيس أو جليس ، الطفل الذي لا يكاد يرى الرجل حتى يبتسم له ويتفتح له قلبه . . مما يشجع جوّاب الآفاق على الدخول وفى يده غصن حافل بالزهر وبالثمر .

ويفرح الطفل بالرجل ، فيجلس إليه هذا فوق أرض الكوخ يلاعبه ويداعبه . . حتى إذا عادت السيدة ووجدت هذا الرجل القذر الذى نثر الوحل فوق أرضية الكوخ عبست وبسرت ، وبدا الغضب فى وجهها ، وأخذت تنهره فى غلظة وقسوة ، ثم طردته من كوخها شر طردة . . وهنا ينظر إليها جوّاب الآفاق متجملاً ، وفى أناة وحلم ، ثم يقول :

« لا بأس . . إنى راحل من هنا لأعود إلى الجادّة . . إلى الطريق الواسع المستقيم الذى يسير فيه الحفاة من الأطفال . . إنى منطلق إلى حيث الصخور والنؤى والرياح . . إلى حيث نواح الدوح وأنين الأيك وسط العاصفة ! » .

ويخرج الرجل ، ويخرج الطفل فى إثره ليقدم إليه الغصن البديع الحافل بألوان الزهر والثمر . .

ثم لا يلبث الطفل أن يعود ليقول لأمه :

« أماه : لقد تبعت الرجل إلى النهر ، ورأيته بعينى هاتين ينزل إلى الماء فيسير فوق صفحته بقدميه . . وقد هتفت به وناديته لكى يعود ويأخذ غصنه ، لكنه لم يزد على أن التفت إلىّ وقال لى : أن أعود إليك لكى ترى هذا الغصن بعينيك ! » .

ولا يكاد الطفل يقول هذا حتى تضطرب المرأة . . وحتى تخر راكعة وقد ملأ الخوف نفسها ، وتملكتها الحسرة ، وتنشأ تقول :

« يا له من غصن لم تنبته شجرة من أشجار هذه الدنيا ! لقد ذهب السيد دون أن

أعرفه أبدًا ! ذهب وهو الغريب المسافر الذى أعطانى كل شىء ، ومنّ علىّ بكل ما أنا فيه من نعيم ! إنه ملك هذا العالم كله ، والدنيا جميعها ! » .

* * *

ومن هذه الخلاصة السريعة لإحدى مسرحيات ليدى جريجورى الصوفية نلمس البساطة فى التفكير والشاعرية فى التصوير . . والمسرحية بسيطة متناهية فى البساطة حتى لقد حرنا فى تلخيصها فى أكثر من هذا الموجز الخاطف . . وروح الطهر الدينى واضح فيها ؛ وقد تحض قارئها أو المتفرج عليها على محبة الخير والاتصال عن سبيله بالسماء .

* * *

أما ييتس فغير ذلك فى تصوفه . . إنه أكثر شاعرية من ليدى جريجورى وهو يتعلق بمثل أعلى لا يمكن تحقيقه . . إنه فى إحدى مسرحياته [1] يجعل بطله يتشوف إلى عالم مملوء بالبهجة الأسطورية ذات الشباب الدائم والجمال المقيم الذى لا يبيد . . إنه يبحر إلى الغرب فوق متن المحيط باحثًا عن جنة الخلد ، وعن حب من نوع جديد .

مسرحية الساعة الرملية :

وهو فى مسرحية أخرى [2] يصور لنا رجلاً حكيماً يعلم تلاميذه ألا يؤمنوا بأى معرفة يكتسبونها عن طريق غير طريق الحواس . . ومنذ أن بدأ هذا الحكيم يبشر برسالته تلك لم تدخل أى روح إلى أقطار السموات . . ويهبط إليه ملك يحذره قائلاً له : « إنك لابد ميت خلال ساعة . . وإن أبواب السماء لن تفتح لك لأنك تنكر وجود السماء . . ولن تتفتح لك أبواب المطهر لأنك تنكر وجود المطهر » .

ويقول له الرجل الحكيم : « ولكنى قد أنكرت وجود الجحيم كذلك » ويجيبه الملك : « إن الجحيم هى مأوى أولئك الذين ينكرون » وهنا يهلع الرجل ، ويخيل إليه

---

(١) The Land of Heart' s Desire .

(٢) The Hour Glass .

أنه إذا استطاع أن يجد فى مدى هذه الساعة الواحدة الباقية له فى الحياة شخصًا واحدًا لا يزال يؤمن بالسماء بعد الذى نشره بين الناس من كفر وإلحاد فقد يكون له بقية من أمل فى الدخول إلى ملكوت السماء .

ويترك له الملك ساعة رملية يقيس على حبات رمالها تلك الساعة الباقية له فى الحياة؛ ويسأل الرجل اليائس وعيناه عالقتان بحبات الرمال من حوله ، عن تلاميذه وزوجته وعياله . . إلاّ أنهم جميعًا يكونون حافظين لتعاليمه عن ظهر قلب ، ملمين بكفرياته إلمامًا كبيرًا ثابتًا . . ومن ثمة لا يجد الرجل بدّا من الالتجاء إلى أحد المجانين لسؤاله . . . ويكون المجنون ممن لا يزالون يؤمنون بعالم الغيب غير المرئى . . إنه يؤمن بأن أناسًا متشحين بالسواد يذهبون كل يوم لينشروا شباكهم السوداء فوق الجبال ليمسكوا بمخالب النسور الحائمة هناك . . وهو يقول : إنه يذهب وراء هؤلاء الناس كل يوم قبيل الفجر وقد حمل مقصًا كبيرًا ليقطع به الشباك وليطلق سراح النسور فتنطلق فى الجو حرة طليقة ، ولا يملك الحكيم إلا أن يضحك مستهزئاً بالمجنون المعتوه . . إلا أنه مع ذاك يكون مستعدّا لقبول الخلاص على يدى هذا الأبله السليم النية .

وها هو ذا يطلب منه أن يدعو إليه تلاميذه ليتحدث إليهم . . فقد فهم كل شىء الآن على وجهه الصحيح . . إننا لا نرى الحق . . والله يرى الحق فينا . . فلتصلّ أيها المجنون . . وادع ربك أن يظهر لهم إحدى علاماته ويستنقذ أرواحهم وهم أحياء»! . .

ويموت الرجل الحكيم . . ويقول المجنون لتلاميذ الحكيم : « لا تتحركوا ! لقد طلب أستاذكم أن تظهر لكم علامة من علامات الله عسى أن تنجيكم . . فانظروا ماذا خرج من فمه ! إنه شىء صغير ذو جناحين . . شىء صغير متألق . . وإنه ذهب الآن نحو الباب » .

وفى تلك اللحظة نفسها يظهر الملك عند الباب مادّا ذراعيه كأنما يحاول أن يمسك بروح الرجل المجنحة . . ثم ها هو ذا يقبض يديه ، فيقول الرجل المجنون : « إن الملك قد أمسك بالروح فى يديه بالفعل . . وإنه سوف يفتحها فى جنة الخلد . . حيث تنطلق روح الحكيم تمرح وتفرح » !

* * *

ولعلنا نلاحظ فى هذه المسرحية نزعة غلاة المتصوفة فى الزراية بالعلم والعلماء ، واعتقادهم فى أن الجنة دار محبوسة على من حسنت عقيدته فى الغيب مهما كان المعتقد من البله والمجانين المعتوهين والذين لا يوجد فى رؤوسهم مثقال ذرة من علم . وإليك خلاصة لمسرحية أخرى لبيتس . . مسرحية تتسم بالتفكير الجدى وإن يكن موضوعها يدور حول ما بين العلم و الإيمان من تباين ، وإن لمسنا فيها ألوانًا أخرى من التباين بين الفرد والمجتمع ، وبين المدنية المعقدة والبساطة التى لم تعرف زخرف الحياة بعد .

* * *

مسرحية حيث لا شىء: (١)

(تمثيلية بقلم بيتس)

عجبًا لهذا الرجل الغنى الثرى الواسع الثراء ، بول رَتْلِدْج ، الذى يضيق بثروته ذرعًا ، كما يضيق بتلك الحياة المعقدة الغارقة فى التقاليد من حوله ، فهو يتنازل عن ثروته وعن أملاكه الواسعة لأخيه ابن أمه وأبيه ، ثم ينطلق من بلدته ليهيم فى العالم ، ملتمسًا بساطة العيش وبداوة المظهر وخشونة الحياة ، عامدًا أن يذل نفسه باقتراف مهنة كانت فى ذلك الزمن من المهن الوضيعة المحتقرة . . هى مهنة السمكرة . .

لكن الرجل لا يلبث أن يدهمه المرض فيأوى إلى دير قريب ليعنى به ثمة . . إلاّ أنه لا يلبث أيضًا أن يعجب بحياة الرهبان فيصبح واحدًا منهم ، ويتصوف ، وينتقل بروحه من دنيا المادة هذه إلى عالم الشطح والروح ، ويؤمن بأن فقدان المرء لشخصيته ، وأن اندماج الإنسان ـ المحدود أو المتناهى ـ فى الله ، غير المحدود ولا المتناهى ، هما مناط الأمان ومثوى السلام والغاية من وجود الإنسان . . إن بول رتلدج يحن إلى حالة من الوجود « لا يوجد فيها شىء يكون شيئًا ، ولا يوجد فيها أى مخلوق يكون مخلوقًا !! » وقصارى القول إنه يؤمن بأنه « حيث لا يوجد شىء يكون الله موجودًا !! » .

ويتحدث بول بهذا إلى زملائه الرهبان ، إخوته فى الله ، فيتأثرون بكلامه ويدينون بما

---

(١) Where There is Nothing .

يدين هو به . . وهو يتحدث إليهم بما فطر عليه من روح السخرية والفردية ، التى تجعله أقرب الشخصيات إلى شخصية هاملت السابح فى عالم الفكر المجرد والأحلام السائبة . . لقد كان يقول لهم : إنه يخيل إليه أن الناس جميعًا من شدة تعلقهم بهذه الدنيا التى استعبدتهم قد أصبحوا أشبه بحيوانات المزرعة التى نسيت حريتها ، واستسلمت لمن يسمنونها ليذبحوها أو ليسخروها لأغراضهم . . إن الناس قد أصبحوا كهذه الحيوانات السائمة بالفعل ، وما أجسامهم البشرية تلك إلاّ صورًا تنكرية يتقمصونها ليخدع كل منهم أخاه . . إن كلا منهم لا يستطيع أن يعيش لذاته أو يفكر لنفسه . . ولو عرفوا لأدركوا أنه ليس ثمة ما يلذ أكثر من الرجوع إلى الطبيعة البشرية فى بساطتها وبعدها عن زيف المدنية وزخرف الحضارة المعقدة .

وكان أحد تلاميذه إذا سأله عما إذا كان يفضل لو فقد العالم ما كسبه من حضارات منذ العصور المظلمة أجابه قائلاً : « وليت شعرى ماذا كسب العالم من ذاك ؟ إننى من أولئك الذين يعتقدون أن الإثم والموت لم ينتشرا فى العالم إلاّ منذ أن أكل نيوتن التفاحة . . وأنا أعلم أنكم ستزعمون لى أنه لم يزد على أن رآها تسقط . . لا بأس . . إن هذا لا يغير من الواقع شيئًا » !

ويصرح بول بأن العمل والكدح فى هذه الدنيا أقل أهمية من التجربة بما لا يقاس . . فإذا اعترض أحدهم بأن الدنيا لا يمكن أن تستقيم أو تمضى بلا عمل ، أجابه قائلاً : «ولماذا يجب أن تمضى الدنيا ، وأن تستقيم ؟ أليس محتملاً أن المعلم المسيحى قد جاء ليضع لها حدّا ؟ » .

ولا يزال بول . . محطم الأوثان . . يوسوس إلى تلاميذه بما يملأ رأسه من شطحات الصوفية الزائغة هذه ، زاعماً لهم أن السماء ليست إلاّ نوعًا من الخمار أو النشوة الروحية . . . وهو يقول لهم : « إن الإنسان إذا أمكنه أن يقصر ذهنه على الفكرة الوحيدة العليا حتى يعيش فيها لخرج بذلك من نطاق الزمن إلى نطاق السرمدية ، وليعلم الحق لأجل الحق ليس غير ! » وبهذا يسمو فوق القانون وفوق التعدد . وبول يمتدح حياة الغريزة ويستهجن حياة القوانين والشرائع وينعى عليها . ويصف القوانين بأنها : «كانت أول الآثام وأقدم الأوزار . . إنها كانت أول قضمة من التفاحة . . ومنذ

اللحظة التى بدأ الإنسان يضع هذه القوانين بدأ يفنى ويموت ! ولهذا ، فيجب علينا أن نقضى على القانون كما أطفىء أنا هذه الشمعة » !

يقول هذا ، ثم يطفىء شمعة من شمعات المذبح السبع فى أحد أقبية الدير حيث كان يعظ تلاميذه . وبعدها يتحدث إليهم فينعى على الناس « تركهم لحضن أمهم الأرض الخضراء المسماح حيث كانوا يحيون حياة سهلة كريمة لا تصنع فيها ولا كلفة فراحوا يبنون الدور المزركشة ، ويتخذون القصور المزخرفة ، وينشئون المدن العظيمة . . ولو عقلوا لهدموا هذه الدور والقصور والمدن وأطفأوا بهرجها ، كما أطفىء أنا هذه الشمعة » .

ثم يطفىء شمعة ثانية . .

ويتحدث بعد هذا عن الكنيسة فيقول : إنه قد جاء على الخليقة حين من الدهر كانت المحبة ترفرف عليها بأجنحتها . . إلاّ أن الناس نشأوا بعد ذلك على الجبن . . ووقعوا فى الإثم . . وتحولوا عن الصراط الأول السمح . . وعلى الرغم الذى الله سبحانه قد جعل الأيام كلها أيامًا طاهرة مقدسة ، جاء الإنسان فزعم أن اليوم من أن الله سبحانه قد جعل كل مكان فى الدنيا مكانًا مقدساً ، فقد جاء الإنسان فزعم أن المكان الذى ينشىء فيه العمد ويقيم الجدران فيه من حول تلك العمد هو وحده المكان المقدس . . المكان الذى يستريح فيه من عناء الأعمال . . وعلى هذا النحو وغيره أنشأ الإنسان الكنيسة . . « إن واجبنا أن نهدم أمثال تلك الكنائس . . يجب أن نقضى عليها ونطفئها كما أطفىء أنا هذه الشمعة ! . . . » .

ثم يطفىء شمعة ثالثة . .

ويمضى بول فى وعظه متحمساً فى بيان شعرى دافق فيزعم «أن عمل المسيحى ليس هو الإصلاح ، بل . . الكشف والرؤيا . . وأن الأعمال الوحيدة التى يمكن أن تتناولها يداه لا يمكن إنجازها أبداً فى نطاق الزمان . . وأن على الإنسان أن يتخلص من كل ما ليس حياة سرمدية لا تقاس بمقاييس الزمان والمكان . . وواجب علينا أن نطفىء فى نفوسنا كل مطمح وكل أمل ، كما أطفىء أنا تلك الشمعة . . وكل ذكرى كما أطفىء

هذه الشمعة . . وكل تفكير فى الحياة الدنيا ، كما أطفىء تلك الشمعة . . وأخيراً . . يجب علينا أن نطفىء ضوء الشمس ، ونور القمر ، وأضواء الدنيا . . بل الدنيا نفسها . . يجب أن ندمر هذا العالم . . يجب أن ندمر كل ما هو قانون وعدد . . لأنه حيث لا يوجد شىء يوجد الله ! . . » .

يقول هذا ، وفى أثنائه يطفىء الشموع السبع .

ولا يكاد رئيس الدير يعلم بما يدعو إليه بول حتى يثور ويغضب ، ويطرد من ديره هذا الداعية الضال المخرب هو ومن انخدع به من تلاميذه ، ممن أصاخوا لدعوته ، وانطلت عليهم رسالته .

ويهيم بول هو ومن معه حتى يلجأوا إلى كنيسة مهدمة على ضفاف نهر الشانون ، ويمسهم الجوع ويهرأ أبدانهم البرد ، وكلما سألوا الناس طعامًا رفضوا أن يمدوهم بشىء . . . إن الناس جميعاً ينبذونهم ويتحاشون لقاءهم أو التحدث إليهم . . ولا يجد هؤلاء البائسون بُدًّا من العمل . . وها هم يصنعون السلال من أفرع الشجر ويبيعونها ، وها هم هؤلاء يبنون المصانع والمنازل . . وها هم يحشدون جيشًا من الفقراء والمحتاجين ويغزون بهم المجتمع . . وبول بين هذا وذاك ينظر إليهم آسفاً متحسراً دون أن يشجعهم على هذا كله لمنافاته لدعوته . . لكنه مع ذاك كان يأكل مما يأكلون ومما يعملون .

وكان يقول لهم وهو يعظهم : « ألا يمكن أن تفهموا ما علمتكم أبداً؟! . . . إن فى استطاعتكم أن تجمعوا هذا الشىء إلى ذاك الشىء . . القوانين ، والشرائع والنقود والكنيسة والنواقيس . . حتى تعودوا بقضكم وقضيضكم إلى كل ما فررتم منه . . إن ما تقومون به من تنظيم يؤدى بكم إلى استحداث القوانين واستحداث الحساب! . . . وموالاتكم التنظيم هو نفسه الطريق الذى جلب الشرور كلها على العالم . إنه هو نفسه ما صنعه الناس قبلكم ! ولعمرى لقد نسيت . . إننا لن نستطيع تحطيم هذا العالم بالجيوش ، بل لا سبيل إلى تدميره والقضاء عليه إلا من أعماق عقولنا . . . يجب إفناؤه فى لحظة داخل هذه العقول ! . . . » .

ويشتد سخط العامة على هذا الداعية المخرب ، وعلى عصابته التى تدعو الناس إلى ما لم يدعهم إليه أحد من قبل . . إنهم يدعون الناس إلى الفقر والفاقة واطراح العمل وعدم زرع الأرض أوتربية الحيوان أو اكتناز القرش الأبيض الذى ينفع فى اليوم الأسود أو القيام بأى سعى فى سبيل الرزق وتحصيل القوت . . فكيف يعيشون ؟ . . . إن دعوتهم هذه دعوة إلى الموت . . إذن فليموتوا هم وحدهم . . أما العامة فيجب أن يبقوا ليعيشوا ويعملوا . .

وتشب الثورة على بول وأصحابه ، فيضطرون إلى الهرب .

وإذا قال أصحاب بول لبول : « إن أمامك تلقاء هذه الثورة عملاً كثيراً ضخماً يجب القيام به . . وإن أمامنا جميعاً عملاً جسيماً يجب أن نؤديه ، أجابهم بول قائلاً : «ليس ثمة ما يجب عمله أو القيام به . . إنى قررت البقاء . . لأن الموت هو المغامرة الأخيرة ، ثم هو أول المسرات الكاملة . . لأن النفس تلقاء الموت تملك مر نفسها . . . وتعود إلى المسرة التى خلقتها ! . . » .

وهكذا يقبل الناس فيرجمون بول بالحجارة حتى يموت بعد أن يتخلى عنه تلاميذه . . . إلا السمكريون الذين لا يستطيعون أن يفهموا عنه شيئاً !

* * *

وليس يخفى علينا إدراك ما فى هذه المسرحية الصوفية المظلمة من أثر الدعوة التى كان يدعو إليها المنحطون من متصوفة العصور المظلمة والعصور الوسطى فى الشرق والغرب على السواء ، أولئك العدميون الذين هم أعداء كل نظام وأعداء كل قانون وأعداء كل حضارة . . أولئك الذين يخدعون أتباعهم عن أنفسهم باسم الدعوة إلى الاندماج فى الله . . والتجرد من أعباء الحياة ، والفرار من مقتضيات العيش . . لا ليعملوا شيئاً إلاّ ليهيموا كفقراء الهنود الأقدمين فى دنيا من الأوهام والأحلام والبطالة . . . إلاّ ليبيدوا . . ويستسلموا للموت . . والفناء . .

ونحن لا ندرى لماذا لا يكون الاندماج فى الله سبحانه مما يمكن أن يتم بالعمل الصالح والكفاح المثمر وعمار هذه الدنيا التى ما وجدت إلاّ للعمل الذى يزن به الله

أقدار عباده ؟ . . . العمل لخير الفرد ولخير الجماعة البشرية كلها ! . . .

وسواءٌ أكانت هذه هى آراء المؤلف الذى قدمنا أنه بمذهبه الصوفى يمقت الموضوعية فى الأدب ، أم أنه أراد السخرية بهذا الصنف من المتصوفة البله ، فالمسرحية تغمرنا بجو فيه أفكار خانقة أعجبتنا أو لم تعجبنا .

* * *

مسرحية كل حى :

مسرحية أخلاقية morality من عهد النهضة

مؤلف هذه المسرحية مؤلف مجهول . ويردها بعض المؤرخين إلى عصر إدوارد الرابع : (١٤٦١ ـ ١٤٨٣) ، ويرجحون أنها ترجمة لأصل هولندى يدعى (Elckerlijk) ومع أن هذه المسرحيات الأخلاقية كانت تمثل على العربة المسرحية ، أو pagent فى وسط الميادين العامة فقد أخرجت فى العصر الحديث فى كل من إنجلترا والولايات المتحدة ، ونالت نجاحاً كبيراً ، وأقبل عليها الجمهور إقبالا شديداً ، وذلك لما فيها من الإثارات الدينية القوية التى تلائم أمزجة الجمهرة المتدينة فى كل أمة من الأمم ، بصرف النظر عن الدين الذى تدين به . . وأى متدين لا يتأثر بمسرحية تقول له إن العمل الصالح فحسب هو الذى يؤنس الإنسان فى قبره وهو الذى ينفعه يوم الحساب ؟

وكل حى هنا هو رمز للبشرية كلها . . إن البشرية كلها تتمثل فوق خشبة المسرح فى شخصية كل حى Everyman بطل هذه المسرحية .

* * *

اطّلع الله سبحانه من سمواته العُلى فهاله ما غرق فيه عباده من صنوف الوزر ، وما اجترحوا من فنون الموبقات ، وما اجترأوا عليه من عصيان أوامره ، والاستخفاف بنواهيه ، على الرغم مما بذل لهم من الخير ، وما أغدق عليهم من النعم ، على الرغم مما افتداهم به من ذات نفسه يوم الصليب المشهود [1] فكأنما لم ينفعهم شىء من ذاك ،

(١) المسرحية من الروايات الدينية المسيحية .

وكأنما رضوا أن تعمى أبصارهم فيخذلوا ربهم ويتخلوا عن هداه إلى ضلالاتهم . . فقضى أن تقوم الساعة ، وأن يذوق « كل حى » حتفه ، ويلقى ربه . ليقدم إليه حسابه . . ولهذا دعا الله ـ وبالأحرى ملك الموت ، وأمره بقبض روح « كل حى » ليعود إلى بارئه الذى ترجع إليه الأرواح جميعاً ، والذى لا مهرب منه إلاّ إليه . . ويصدع ملك الموت بأمر ربه ، ويسجد بين يديه ، ثم ينهض فيقول : « لبيّك اللهم لبيك . . إنى لمنطلق إلى الدنيا فآتى على كل شىء ، وأقبض جميع من فيها من النَّسَم ، لا فرق عندى بين غنى وفقير ، وعظيم وحقير ، وكبير وصغير . فالكل عندى سواء . . أصوّب سهامى إلى أعين الذين بهرهم زخرف العالم وحطامه الفانى فأنساهم ربهم ، وأعماهم عن سمواتك . . ولأقذفن بهم إلى سواء الجحيم ! . . . » .

وينطلق الموت ليؤدى رسالته .

ويلقى « كل حى » سادراً فى غيه ؛ غافلاً عن أمر ربه ، لا يدور فى خلده أن حينه قد حان ، وأن أوانه قد آن ، فيهتف به الموت فجأة : « رويدك أيها الإنسان البائس . . مالك تمشى هكذا فى الأرض مرحاً ! . . . أنسيت الله الذى سوّاك فعدلك ؟ ! . . . » .

ويسأله الإنسان وهو لا يدرى من أمره شيئاً : «الله ! . . . وماذا يبتغى الله منى ؟ ! . . . » .

ويقول له الموت : « ماذا يبتغى الله منك ؟ . . . لقد أمرنى أن أقبضك إليه لتؤدى إليه حساباً ثقيلا عما قدمت يداك من خيرٍ ما أقله ، ومن شرٍ ما أكثره وأكبره ! . . . » .

ولا ينسى الإنسان كبرياءه على الرغم مما أسقط فى يده ، ويقول محتجاً :

«ماذا ؟ . . . إننى ما فكرت قط أن تدهمنى هكذا على غير انتظار ومن غير استعداد . . . وأنا فى زهرة العمر ونضرة الشباب ! . . . اسمع أيها الموت . . أأنت واثق أنه أرسلك إلىّ أنا بالذات ؟ . . . ألا يكون قد أرسلك إلى أحد غيرى من الطاعنين فى السن ؟ . . . » .

ويجيبه الموت أنه هو المقصود لقاصمة الظهر هذه ، وإن الموت لا يخطىء ! . . . » .

فيقول له كل حى : «اسمع أيها الموت إذن . . إليك هذه البدرة . . إن فيها ألف قطعة من الذهب الخالص . . خذها ولا تردها إلاّ متى أحببت . . ثم انصرف عنى ! . . . » .

لكن الموت لا يزيد على أن يعبس . . ويصر على قبض روح كل حى ، وهنا يضطرب المسكين ، ثم يقول :

«إذن . . خذها . . خذها هدية خالصة منى . . إنها حلال عليك . . على أن ترجىء هذه المهمة إلى . . إلى يوم آخر . . حتى أتمتع بشبابى . . فما قضيت من أمانىّ شيئاً بعد ! . . . » .

ولكن الموت لا يجيب كل حى إلا بضحكة صفراء نكراء مزعجة . . قائلاً : إن الموت لا يقبل الرشوة . . ولا يستطيع أن يفسق عن أمر ربه ، وإنه إن كان يستطيع أن يعد بشىء ، فهو أن يضم إلى الرجل فى رحلته الطويلة الشاقة إلى القبر بضعة نفر من إخوانه ، وأن يتركه ساعة يفكر فيمن يجب أن يصحبه ممن هم على شاكلته .

ويفكر الرجل المضطرب المنزعج الذى تصطك فرائصه ، يفكر فى نخبة من الأصدقاء يمكن أن تصحبه فى رحلته إلى القبر ، فيذكر من يذكر صديقاً له كان يسمى : « إخاء » فيهرع إليه ، ويبثه همه فى مقدمة طويلة ملتوية لا يفهم إخاء ما وراءها ، وهو فى ذلك يهش لصديقه ويبش ، ويرجوه أن يصرح له بما تنطوى عليه نفسه ، وما تكنه أضالعه ، وألا يخفى عنه سره ، إذ ليس أحب إليه من أن يفديه بنفسه ، وأن يبذل له من روحه ما هو جدير بما بينهما من محبة ، وما يربط بين قلبيهما من وداد . . وهنا يرجوه « كل حى » أن يتفضل فيصحبه فى رحلته الطويلة الشاقة إلى السماء ! . . . ولا يقول إلى القبر . . فإذا سأله صاحبه أن يوضح غرضه لأنه لا يفهم ، قصّ عليه لقاءه مع ملك الموت ، حتى إذا أكمل قصته ، وعرف إخاء غرضه وما يرمى إليه ، تقلصت عضلات المسكين فجأة وارتعدت فرائصه ، ولم يملك إلا أن يعتذر لصاحبه عما وعد من تلبية أى طلب منه ، لأنه لم يفكر مطلقاً فى أنه كان يريد منه ذلك المحال ، بل إنه كان يحسب أنه سوف يطلب منه أن يصحبه إلى حانة أو مراح لذات ،

أو أن يعينه فى أى عمل آخر ولو كان هذا العمل قتل عدو له أو الفتك بمعتد عليه . . أما أن يشركه فى تجرع غصص الموت ليسهل عليه أمرها ، فهذا ما لا يستطيع أن يعد به ولا أن يحتمله ، وهو لذلك يرجوه أن ينشد مطلبه عند أحد سواه . .

ثم يتركه غير مستأذن ، ولا ناظر إليه . . وينصرف . . وهو لا يزال يرتجف! . . .

ويزفر كل حى زفرة تهز كيانه ، ثم يمضى فى طريقه حتى يلقى أحد أصدقائه الأقربين من بنى أعمامه ، واسمه « عطف » فيتوسل إليه بعد كلام طويل أن يعينه على الموت بأن يزامله فى رحلته الطويلة الشاقة إلى الدار الآخرة . . ولكن ابن عمه لا يجيبه بخير مما أجابه به صديقه إخاء من قبل . . وها هو ذا يقسم له بمريم البتول ، وكل نبى رسول ، أن قدمه لا تحتمل السفر الشاق الطويل ، وأن الندوب والبثور (الكاللو! . . .) التى فى إخمصيه تعوقه حتى عن المشى خطوات . . ثم هو يدعو له الله ويضرع إليه أن يقصر طريقه إلى جهنم ، أو إلى الجنة وأن يعجل بروحه إلى إحداهما !! . . . ويتركه وينصرف . .

ويضرب كل حى أخماسًا بأسداس . . ثم ينطلق فيلقى صديقه « ثراء » . ولا يكاد يراه حتى يتهلل ثراء ويفتح له ذراعيه . . لكنه سرعان ما يعبس ويربد وجهه عندما يكشف له كل حى عن همه ، وما ينتظره منه من المعاونة عليه والمزاملة له . ولا يجد ثراء ضيرا ولا مشقة فى أن يصارح صديقه بأن عمله فى هذه الحياة الدنيا هو أن يخدع وأن يخاتل ، وأن يشيع فى النفوس الزهو والغرور . ولم يكن من شأنه ولا فى اختصاصه قط أن يقحم نفسه فى عالم الموت ، فيواسى من يغصون بسكراته أو يشرقون بمرارته . . . ثم يتركه غير مستأذن ولا راث ولا مبال . . وينصرف !

وهكذا يلقى « كل حى » جميع أصدقائه ممن كان يطمع أن يجد فيهم الأخ الندب والصديق المواسى . . ولكنهم جميعًا يخذلونه ويصمون آذانهم دونه . حتى يلقى آخر الأمر أعماله الصالحة واسمها : « حسنات » فيجد فيها الصديقة الصدوق ، والحبيبة الوفية . .

لكنه يجد حسنات هذه ضعيفة موهونة ، ولا حول لها ولا قوة ، فإذا سألها أن

تدركه، قالت له : « لشد ما كان يسعدنى أن آخذ بيدك ، وأقف إلى جانبك . . ولكن . . . ها أنت ذا ترانى وقد أمسكت بى ذنوبك ، وقيدتنى آثامك ، فهى سلاسل فى يدىّ ورجلىّ ، لا أستطيع عنها مخرجًا ولا منها فكاكًا . . فإذا كان لابد من أن أسعفك بما فيه بعض الخير لك ، فاذهب أولاً إلى أختى « معرفة » لتفتيك بما فيه خيرك، وليصلح الله بالك » !

ويذهب كل حى إلى «معرفة » فتشير عليه بالذهاب إلى صديقتها « الاعتراف » الذى يبوح له « كل حى » بجميع آثامه ، ويصرح عنده بكل خطاياه . . ولا يجد « الاعتراف» بدّا من أن يخلع عليه خلعة « الكفارة » بما تصبه على الجسم والروح معًا من أسواط العذاب لتطهرهما من أدران الخطيئة ، وتزكيهما مما اكتسبا من المعاصى ، حتى يستأهلا « المغفرة » آخر الأمر .

ثم يعود كل حى إلى صديقته « حسنات » وهو يتعثر فى خلعة « الكفارة » وقد تطيب « المغفرة » فيجدها قد عاد إليها نقاؤها وشبابها ، وقد أصبحت على خير ما تكون أهبةً واستعدادًا لخدمته ، والسير فى ركابه ، فيسره ذلك ، ويحيى فيه أطيب الآمال . . ثم ينظر حوله فيرى أن صديقته «حسنات » قد جمعت له زمرة من خيرة الأصدقاء ؛ ومن بينهم « القوة ، والبصيرة ، والجمال ، والعقل . . » ولكن كل حى لا يكاد يصل فى رحلته إلى حافة القبر حتى ينظر حوله فلا يرى من هؤلاء الأصدقاء أحدًا . . . بل يجدهم جميعًا قد تسللوا واحدًا إثر آخر . . وكان أول من فعل هذا هو الجمال الذى هلع قلبه وانخلع حينما نظر فى ظلام القبر فآثر الهرب منه قائلاً :

مـــاذا ؟ . . أأنـــزل قبرًا شد ما فزعت

منـــه البرايا وعاثت فيه ديـــدان ؟! . . .

لا . . لا ، فما خلق الحسن النضير له

ومـا بـــه غير صيد المـــوت سكـــان !!

ثم تتبع الجمال القوة على الرغم مما يتشبث بها « كل حى » متوسلاً إليها أن تظل إلى

جانبه تشد من أزره وتعينه على حاله ، لكنها ترد عن نفسها قائلة :

كلا وأيم الصليب الحق مـا سمعت
أذنى إليك ، وبى عــن ذاك غُنيان

إنى لأوثر بعــدًا عنــك يعصمنـى
من الردى ، وبعادى عنك إحسـان

وهنا يربد وجه كل حى ، ويبدو عليه الحزن ، ويقول :

مــن ظــن قوتــه تبقى فقد جهلت
مقــدارَه نفسُــه ، والظــن بهتــان

ويـلى علـىّ ألا خـل فيـؤنسنـى ؟
أليس إلا الأسى فى القبر جيران ؟!!

وينظر الرجل نحو حبيبته « البصيرة » فيجدها تنظر إليه مستهزئة ، وهى تقول :

اذهب فقـوتك الغـراء قـد ذهبت
وولِّ عنى فعـلمى فيـك حيـران

أكـنت تحسبنـى أكـفيك قـارعة
يذوب من هولها شيب وولدان ؟!

ويولىّ «كل حى » وجه شطر عقله ليقول له :

وأنت ؟! أنت الذى قد كنت أحسبه
أوفى صــديـقٍ إذا مــا ازْورّ إخــوان

اتنشى أنت عنـى مـثـل مـا فـعلت
فـعـل العـداة تمـاسيـح وحـيتان ؟

ويجيبه العقل آسفًا :

دعنى ، فقد ضاع ما بينى وبينك من
ود ، وهــل صـان هـذا الـود إنسـان

ويتلفت « كل حى » حوله فلا يجد بجانبه إلا « حسنات » يجدها وقد أخذت تبتسم بوجه مشرق وجبين وضاح . . وهى تطمئنه ، فيقول لها :

أهـكذا ليـس لى إلاكِ صـاحبـة

ولا صـديـق صـفىُّ القـلب رحمـان

أنـتِ التـى قلـما أوليـتها كـرماً

تبقين لى اليوم إذ ولىَّ الأولى كانوا . .

وتجيبه حسنات وهى لا تزال تبتسم ، حانية دانية :

ومـن سـوى حسنـات المرء ينفعـه

يـوم الحسـاب وقـد نـاداه ديـان

انظر إلى القبر ! . . . أمسى روضةً أُنُفاً

واخْضَلَّ فى جنبـات منـه بـستان

هلمَّ ! . . . إنى سـأغدو فيـه مـؤنسةً

وسـوف يرضيـك منى فيـه سـلوان

وهنا يبدو ملك الموت فيسرع إليه « كل حى » راضياً آمناً مطمئناً ، راجياً أن يسرع به إلى تلك الروضة التى تألق بهجةً ونوراً . .

ويبتسم ملك الموت . . ويمد يديه الكريمتين ليتسلم الروح المطهرة . . لترجع إلى ربها راضيةً مرضيةً .

وينزل كل حى إلى قبره ومعه صديقته الوفية حسنات . . وبينما يقف ملك كريم حارس عند باب القبر ينشد للرجل أنشودة الرحمة والوداع . . فى حين تصعد الروح السعيدة إلى أجواز السماء .

❋ ❋ ❋